صدى الحرية

أسبوعية ثورية اجتماعية
توعوية منوعة

للتواصل وإرسال المشاركات :

Facebook / SadaALhoryeh ** freequd@gmail.com

فريق QMT قدسيا الإعلامي

مآثر القتلة...

كيف نجمع بين البسمة ..

قدسيا ذاكرة لا تعرف النسيان

على الحاجز

قلمي مسمار صدئ...

في طريق العودة

العدد 80 / السبت 4 / تشرين الأول 2014

مآثر القتلة.. وعنفوان الشهيد

تتوه الحروف وهي تعلن الرغبة بالكتابة عن تاريخ عايشناه بين براثن الخوف والانتظار الحتمي لموتٍ وشيك، تحت رحمة القاتل المشتاق لسفك الدماء... موتٌ ينتظر على بعد أمتار منا، أو ربما على بعد دقائق... موتٌ يطرق الباب بقوة، يد القتل تلف المدينة، وبعض المترقبين يتحدثون عن زبانية الطاغية، وكم يسردون الحكايات حول "مآثر القتلة"!!، تتوه الحروف قبل ساعاتٍ من الفاجعة بمدينة تحرق وشبابٍ تنهش لحومهم ويعدمون بقلبٍ باردٍ.. رائحة البارود تملأ السماء، أصوات الصواريخ تكسر صمت الليل، في الطريق ينتشر الثوار يرابطون على المداخل، خرير المياه من الخزانات المثقوبة يوحي بالرعب... وظلمةٌ كما قلوب القتلة... في الصباح تتغير المعادلة وتنقلب كفة الميزان... آثار الدمار بدت واضحةً في صبيحة الانسحاب، الثوار قدموا ما بوسعهم، واختاروا الانسحاب مرغمين، المعركة لم تكن متكافئة مطلقاً، قلة الخبرة والذخيرة، طبيعة المنطقة، جميعها عوامل مهمةٌ للنصر ومن الطبيعي اختلال موازين القوة... والانسحاب حقيقة عاشتها الكثير من المدن الثائرة مثل"حمص"، لم يهربوا كما يريد البعض تصويرهم، ففي المدينة شبابٌ سطروا بعنفوانهم ما عجز عنه الكثيرون، ولم يكن صواباً أن نبني أملاً على تلك المعركة، من يومها تتهم الثورة، ويسكت عن مجازر النظام... من وقتها والناس تساوي بين الجلاد والضحية... ويتعاظم التعامي عن الحقيقة، إنه حب الدنيا وكراهية الموت.. تمر الذكرى، ولابد من الحديث عن ذاك الحد الفاصل بين مرحلتين من حياة قدسيا، والتغيرات كبيرةٌ على المستوى الميداني والتأييد الشعبي لها... لعلنا نطوي هذه الصفحة ونحن في أول أيام عيد الأضحى المبارك، نلامس الجرح ليبقى تذكرةً، ونكفكف الدمع، فليست أمة الإسلام بالتي تبكي.

قدر بعض المعارك أن تصبح حداً فاصلاً بين تاريخين، بين انتصارٍ وهزيمة... حداً فاصلاً بين تأييدٍ ورفض... وتنسحب آثارها على مواقفنا، اعتماداً على عوامل متعددة.

من المسئول عن الفاجعة؟ لماذا لم يصمدوا؟ تتسع دائرة الأسئلة... وتعلو معها صيحات الرفض لما حصل؟ وتكبر المعاناة وينقسم المجتمع مع ما أصاب الناس من إنهاكٍ مادي، لكن أن نبقى في تلك الدائرة...!! اعتقد أنه يعني الهزيمة، وترك يدٍ واحدةٍ تكتب تاريخنا... تشوهه... هو عين الانحطاط.

حقيقةً لم أمتلك وأنا أمسك القلم لأكتب عن "معركة الشهر العاشر 2012"، إلا الألم، وبداخلي رغبةٌ لتحويله إلى فرحة تناقض المنطق والواقع، تبتعد وتمحو من الذهن ظلمة ذاك اليوم، لعلنا نقرأ منه عبرةً، نخرج بها لطريق انتصار، بالقلم... بالسواعد... بالتخطيط... بالتعلم من أخطاء الماضي، باستشعارنا بألم المحيطين بنا... بإعادة الثقة فيما بيننا، بالبحث عن الحقيقة، وتحمل الأمانة بنيةٍ خالصةٍ لله لا لتغليب "الأنا". كنت أحتاج لمساحةٍ من بقع الدم حتى أكتب بمدادها تاريخ المجزرة، ومشهد الصمود والبطولة.

أبيدٍ واحدةٍ علينا أن نكتب عن ذلك الكم من الجرائم.. وذلك الكم من الهوان؟ بعض الكلام لا يُكتب بالحبر، ولا يكتب باليد. الذين سبقونا إلى كتابة المستقبل ما عادوا هنا. الشهداء الذين حولتهم بعض الجهاتِ أرقاماً... الذين هُجّرت جثثهم أيضاً، ويدفنون "دفن الوديعة" في غياب أقاربهم وأحبّائهم، دفنوا معهم يدي.

صدقاً، أخشى أن أكون فقدت القدرة على الكتابة، كعشرات الجرحى الذين فقدوا في هذه الحرب عضواً من أعضائهم، وتكتظُّ بأجسادهم المشوّهة المستشفيات. شيءٌ فيّ تشوّه. لكأنّ تلك الحروق التي نراها تنتشر على أجساد الأبرياء تذكرنا فقط بنكبتنا... لقد كانت صدمةً انزلقت بالبعض نحو اختيار العداء للثورة أو الحياد.

مَنْ.. مِنْ تحت أنقاض الصدمة، ينتشل من داخلي جثث الكلمات؟ وتلك الدموع المتفحّمة في المآقي؟

لكن... أليس من الظلم أن نستمر في البكاء... ومن العار التوقف عن الكتابة والثورة، لا لشيء إلا هرباً من الألم... من العيب أن نغلق نافذةً فتحت وامتد منها شعاع الشمس، في وقتٍ خلنا أنفسنا لن نرى النور، عبثاً يصبح ما قمنا به إن ردمنا قبور الشهداء وأدرنا ظهورنا عن حقهم علينا... بين اليأس وفرحة العيد أصوغ الكلمات، بعد أن حصل معي كما غيري، شللٌ في عضلة لساني، أفقدني الرغبة في الكلام وفي الجواب وفي الجدل. فما قصدني شخصٌ يستقصي رأيي في هذه المعركة إلاّ وأجبتها بالصمت، كذلك الرجل العجوز، الذي لفرط ما رأى من أهوال، دخل في حالة صمت مطبق.

لا نريد أن نحيي الذكرى لنبكي من فقدناهم، بل لنخرج من خانة التنصل من أخطائنا...

إذاً بعد عامين لا يجب أن نقف على قمتين نقذف أنفسنا بحجارة الاتهامات.

وإن كنا نحتاج إلى أن نبكي فليكن للمرّة الأخيرة، لأن أحلامنا ارتقت وصارت غالية، لا للبكاء على الأقنعة التي سقطت، لأننا عرفنا أنها ما كانت سوى أقنعة، وجودها عند أقدام جثثنا يُبكينا. تزداد في العيد شهيّتنا لمشاهدة الأخبار السعيدة، وإيقاف عداد القتل والدمار، غير أن الجثث التي يقذف بها الموت من دمشق ولبنان وبغداد وفلسطين تزداد هي الأخرى، فالمصيبةُ تتسع...

اليوم لا ولن تكتمل الفرحة بالعيد إن لم تتحول إلى تلك اللذة بالطاعة لله تعالى، اليوم إن لم نسارع الخطى بالاتجاه الصحيح سوف لن نخسر وطننا ولا أنفسنا... إننا بذلك نخسر " ديننا "... اليوم، أمام هول مآسينا وتنويعات الموت الجماعي للمسلمين، الذي يزيد من نهم الكاميرات لجثثنا، أعدكم إن أنتم واظبتم على مدار ساعات الليل والنهار، على مشاهدة نشرات الأخبار، منتقلين من قناة إلى أُخرى، بأن تفقدوا وزنكم.. واتزانكم أيضاً.

من هنا كان الجلوس لاستماع الأخبار، ومتابعة أحاديث السياسة في زمن الثورات أكبر أخطائنا، فنحن إن أردنا الاستمرار يجب أن نصنع التاريخ، بالفكر... بالحب... بالخلاص من التيه الفكري، أما لون الدم الذي سوف يصطبغ به عملنا فذاك حالةٌ لتطهير أنفسنا من فساد العقود التي مضت، يوم قبلنا أن نساق خراف مسالخ، وقطعاناً بشرية، تُقدّم قرابين ولاء على مائدة طهاة العالم وطغاته.

السيد "أوباما" ذا الابتسامة السوداء، حزينٌ من أجلنا، جاءنا بـ "سلّة محبّة"، ومزيداً من الموت، من الأولى قراءته بدلاً من جلد أنفسنا بذكرى النكبات.

ما حصل في " قدسيا " شيءٌ يشابه لدرجةٍ كبيرة بل هو نفسه ما حدث في عموم البلاد، والبقاء مرةً أخرى لا ننظر إلى أبعد من أنوفنا يعتبر محنة شعبٍ لا يحاول أن يفكر، أو يلوم نفسه لأنه بدل من أن يتخلص من الطاغية، صنع طغاةً وسجد لهم، ثم بدأ يلوم "الثورة".

وسيذكر التاريخ أن ساحات الجهاد وضعتنا أمام مآثر القتلة، وعنفوان الشهيد.

قدسيا ذاكرةٌ لا تعرف النسيان

قدسيا تلك المدينةُ الوادعةُ كانت مختلفةً في ذلك اليوم، إذْ لم تستيقظ على أحلامها اللطيفة بعدَ أنسامِ الفجرِ العَذْبةِ النَّديَّةِ، لم تغرِّدْ فيها عصافيرُ الفجرِ في صباح ذلك اليوم، كلُّ شيءٍ كان مختلفاً، رائحةُ البارود في كلِّ أرجاء البلدة من جراء القصف، رائحةُ الدُّخان من جراء الحرائق التي أشعلها جنودُ النِّظام، البيوتُ المنهوبة، جثثُ المدنيِّين الأبرياء، كلُّ شيء بدا في البلدة كان قاتماً وحزيناً.

أجَلْ، في مثلِ هذا الشَّهرِ، أعني الشَّهرَ العاشرَ من عام 2012 أفاقَتْ قدسيا على قوات الأسد تقصف المدينة بكلِّ وقاحة، وكأنَّها ليست من الوطن، تقتحم حُرمات ساحاتها وبيوتها، وتدنِّس أرضَها، هَجَمَتْ على المدينة، قصفَتْ .. قتلَتْ .. أحرقَتْ ونهبَتْ، وكأنَّ تلك القوَّات ليسَتْ من جيش الوطن، كَمْ هُوَ عجيبٌ هذا الزَّمن الذي يتحوَّل فيه جيشٌ كان يُفترَضُ أنْ يحميَ مدنَ سوريَّة إلى آلة حربٍ لهدمِ المدنِ السوريَّة وكأنه جيش أتى من بلاد أعجميَّةٍ من وراء حدود الوطن. وكَمْ هو غريبٌ حالُ تلك المدن السوريَّة التي باتَتْ تنهال عليها نيرانُ قَصْفِ جيش الوطن – كما يزعمون– وكأنَّها ليسَتْ من أراضي الوطن، وكَمْ هو مفاجئٌ حالُ أثاثِ بيوتِ الشعب السوري ودكاكينهم المسلوبة حين يَنْهَبُها الجيشُ السوريُّ في حملة (التعفيش الوطنيِّ) المنظَّمة ثم تُفْتَحُ لها سوقٌ طائفيَّةٌ يقوم عليها جيشُ المعَفِّشِين باسم (سوق السُّنَّة) نحن هنا لا نسعى إلى حديث طائفي، لكنَّ هذا واقع حال جيش النظام مع الأسف، فقادةُ جيش الوطن باتوا هُمْ المحرِّك الرَّئيس لكلِّ نعرةٍ طائفيَّة، قدسيا التي كانت أبوابها قبل الثورة مفتوحة على كل شرائح المجتمع السوري من دون تمييز، باتت الآن تُقصَفُ بيد من أتوا من محافظات أخرى واستوطنوا فيها ومِنْ حَوْلِها ثمَّ راحوا يهدِّدون ويتوعَّدون في كلِّ يوم بحربٍ عليها، وكأنَّهم نسوا كيف كانوا قبل الثورة يجولون في أسواقها وفي شوارعها دون أن يتعرّض لهم أحد، ولكي نؤكِّد لكم أنَّ حديثنا بعيدٌ تماما عن النبرة الطائفية سنسأل شيوخَنا الموقَّرين من شبيحة النظام عن فتوى جيش التعفيش الوطني، وما رأي شيوخنا بقتل المدنيِّين ونَهْبِ أموالهم وعَرْضِها في (سوق السُّنَّة) كما يسمِّيه الجيشُ السوريُّ؟؟ إنْ صَحَّ أن نطلق عليه لقبَ (الجيش السوري)، أمْ أنَّ شيوخَنا الكرام ليس لديهم فتوى في مثل هذه الحالات، لأنَّ فتاويهم فقط مسلَّطةٌ على رقاب البسطاء، ولأنَّ فتاويهم مقصورة على الطلاق والحيض والنفاس، وجاهزة للاستقواء على الضعفاء من الناس إن أذنبوا أو لم يذنبوا، أمْ يبقى الحاكم وحده عند شيوخنا الكرام **(من بيت فرفور ذنبه مغفور)** كما يقال في الأمثال الشامية؟!! هل لشيوخنا جرأةٌ ليقولوا للحاكم ((**كفاكَ مكابرةً فقد حرقْتَ الوطن تنفيذاً لشعاراتك، ومزَّقْتَ كلَّ شيءٍ فيه، وجعلْتَ سوريَّة وجيش الوطن أضحوكة لكل جيوش الدُّنيا**)) هل يجوز لجيش الوطن أن يُعَفِّشَ أثاثَ بيوتِ أبناءِ الوطن، أمْ أنَّ شيوخنا يرون أنَّ الحاكم يجوز له ما حرَّمه الله على الحاكم والمحكوم من البشر، أمْ أنَّهم يخشونَ لومتَهُ فيأخذهم الخوفُ من الحاكم أكثرَ مِنْ خوفِهم من الله تعالى، أين أنتم من أهل النخوة والشرف والدِّين الذين هبُّوا للدفاع عن البلدة؟ فعلى الرَّغم من أنَّ تلك القوات في ذلك اليوم قد دخلَتْ إلى قدسيا مدعَّمةً بأسلحةٍ ثقيلةٍ فقد قرَّر ثوّار قدسيا التَّصدي لها، ودارت رحى المعركة، وقدَّمَتْ قدسيا خِيرةَ رجالها دفاعاً عن أرضها، غير أنَّ حجم النيران وقلَّة السلاح مع كثرة مَنْ ارتقى شهيداً من أبناء قدسيا الذين تصدُّوا لقوات الأسد جعلَ المعادلة صعبة عليهم، فاستُشْهِدَ منهم من استشهد، وأُصيب من أُصيب، وها قد مضَتْ سنتان على الحادثة، وهذه هي الذكرى الثانية لتلك المجزرة التي طالت المدنيين مثلما طالت الثوار في البلدة، ولأنَّنا وعدناكم يا أحفاد الخنازير أننا لن ننسى فقد كتبْتُ مقالي هذا، وإلى اللقاء يومَ هزيمتكم بقوَّة الله، ونَعِدُكُمْ أنَّ **ذاكرةَ قدسيا باتَتْ الآن لا تعرف النسيان.**

ولأجْلِ مَنْ ارتقى منَّا شهيداً **نسألُ اللهَ الرحمةَ لشهدائنا، وكلَّ عامٍ وأنتنَّ تاج رؤوسنا يا أمَّهات شهداءِ ثورتنا، كلَّ عامٍ وأنتم أمانةٌ في أعناقنا يا أيتامَ ثورتنا، كلَّ عام وأنتم يا إخوةَ الجهادِ تاجُ رؤوسنا، وأيها الوطنُ الحرُّ كلَّ عامٍ وأنتَ تاجُ رؤوسنا الحرَّة التي ترفض الذلَّ، كلَّ عامٍ ونحنُ أشدُّ إصراراً على النَّصر وأشدُّ ثقةً بالله أنَّه لن يخذلَ دماء الأطفال والأبرياء، ولن يخذلَ صرخات المظلومين، كلَّ عامٍ تَنْعَمُون بأعلام الحريَّة يا أسرى الحرية** من أبناء قدسيا، ومن كلِّ أبناء سوريَّة الأحرار. كلَّ عامٍ وأنتم بخيرٍ ورضوانٍ من الله وفَضْلٍ مِنْ لَدُنه عظيم.

قلمي مسمار صدئ..

لم يتابع الكثيرون في الداخل السوري أحداث العدوان الإسرائيلي الأخير على غزة، بعضهم لم يكن مهتماً، وبعضهم كان مشغولاً بمتابعة حياته ـ إن جاز تسمية ما نعيشه حياةً ـ، وبعضهم منعته ظروف الواقع من متابعة ما يجري، فيما آخرون فضلوا الاهتمام بمآسيهم، وبما يقع عليهم، وعلى وطنهم من عدوانٍ على يد محور ''المقاومة والممانعة''، ذاك المحور المكون من نظام الأسد، وحلفائه الإيرانيين، والعراقيين، واللبنانيين، وغيرهم من بعض أدعياء القومية، واليسار، والحداثة، هذا مع أن معظم جمهور ذلك المحور كان يتابع الحرب الإسرائيلية على غزة، ويحدوه عظيم أملٍ في أن يلقن ''العدو'' الإسرائيلي حركة المقاومة ''حماس''، درساً يجعلها تندم على قرارها بعدم مساندة القطب الرئيس في المحور ـ نظام الأسد ـ في مقاومته، وممانعته للشعب السوري.

شخصياً، منعني من متابعة العدوان، دون امتناع اهتمامي، وتعاطفي أمران، الأول، كان انقطاع التيار الكهربائي المستمر، الذي وضعني فعلياً خارج حدود معرفة ما يقع، والثاني، انشغالي بمجريات العدوان السوري، وأمر آخر ربما، تمثل في معرفتي السابقة، وتوقعي المسبق، لوقائع العدوان الإسرائيلي، ومآلاته، لذلك تجنبت التعليق على ما يقع هناك، علماً بأن ما جرى ويجري في غزة وفلسطين عموماً، غنيٌّ عن أي شرحٍ، أو إيضاح، بيد أن ما يقع لدينا هو ما يتطلب كل ذلك، بل وما هو أكثر من ذلك، حيث تستدعي تطورات الأحداث، وتقلباتها المتسارعة منا، نحن المعنيون بها، والمنخرطون فيها، والخاضعون لآثارها ونتائجها، جهوداً استثنائيةً فكريةً، وجسديةً، وعاطفيةً، ونفسيةً، فالصمود في وجه صنوف الموت اليومي مضنٍ، والاستمرار، والمقاومة شاقةٌ، ومحاولات التكيف، في ظل اضطراب المشاعر وتخبطها، وتبدل المفاهيم، والأفكار وتصارعها، تستنزف ما بقي لدينا من وعيٍ، وإدراكٍ، وأحاسيس.

لكن، يبدو لي ربما أن أكثر شيٍ متعبٍ، ومتطلبٍ، ومؤلمٍ أيضاً، هو اضطرارنا الدائم لإثبات صحة قضيتنا، والدفاع عن وجاهتها، وأحقيتها، فللأسف لم ننجح حتى الآن، وبعد مرور أكثر من ثلاث سنوات في تقرير أن أفعالنا كانت ثورةً، ولم نفلح في البرهنة أن مفهوم الثورة هو من المسلمات العقلية، والإنسانية، ولم نستطع تحويل ثورتنا إلى قضيةٍ عامةٍ تحوز القبول، والاعتراف، ولم نتمكن من إنتاج خطابٍ واعٍ، منطقي، ومتماسكٍ، يقنع العالم بالاستجابة لنداء واجباتهم الأخلاقية، والإنسانية.

حيث يكون الاستبداد، والفساد، والظلم، والتخلف، والقهر، والموت، يجب أن تكون ثورة..

لكن في واقعنا لا يبدو أن توفر كل تلك الأسباب، كانت تكفي لمنحنا الأهلية، والاستحقاق للقيام بواحدةٍ، وفضلاً عن ذلك، كنا ولا نزال مضطرين لتبرير أفعالنا، وتسويغ أسبابنا، والدفاع عن حراكنا.

قلمي مسمارٌ صدئ..

وحبري هو دمي الممزوج بسخام المدخنة..

كان ذلك مطلع رسالة الدكتور ''مانيت'' نزيل سجن ''الباستيل'' في رواية الكاتب ''ديكنز''، ''قصة مدينتين''، لاحقاً، استغل ''ثوارٌ'' رسالة ''مانيت'' تلك، كدليلٍ لإدانة رجلٍ بريءٍ. في سوريا يوجد آلاف، وملايين دكتور ''مانيت''، ربما، وسرعان ما ستستغل رسائلهم المكتوبة بدمائهم، أيضاً، وثورتهم النازفة، لتجريمهم واتهامهم بتخريب بلادهم، وخلق ''الداعشية''، والإرهاب..!

تطلب الدفاع بدايةً، وفي المستوى الأول، لمقارعة ذرائع المؤيدين، الذين كانت حججهم تتمظهر على شكل تساؤلات غلافها ''البراءة''، وباطنها المراوغة والخبث، كتساؤلهم: كيف تثورون على رئيسٍ مقاومٍ؟ كيف تخرجون من المساجد؟ كيف تصيحون بالتكبير؟ كيف تستنجدون بالتدخل الأجنبي؟ كيف تحملون السلاح ضد النظام؟.

في المستوى الثاني تطلب الأمر الدفاع أمام العالم الخارجي، الذي سارع أكثره لاعتبار الحراك حرباً أهليةً، وصراعاً بين السنة والعلويين، وسعياً من قبل حركات الإسلام السياسي لركوب موجات التغيير، والوصول للحكم.

لكن في المستوى الثالث أصبح الأمر أعقد، فالثورة الآن مضطرة للتبرير، والدفاع أمام أفرادٍ، وجماعاتٍ أيدتها، وشاركت فيها سابقاً، قبل أن تغادرها، بعدما أسهمت بقسط كبيرٍ في إفسادها، واستغلالها.

بعدما اشتد الخطر، وارتفع مستوى، وحجم التضحيات المطلوبة، أدرك أولئك أنهم غير مستعدون للبذل، وتأكد لهم أن سقوط النظام بعيدٌ، وأن فرصهم في الوصول للسلطة، دونها مشاقٌ، لذلك فضلوا التبرؤ من الثورة، ولتجميل خيارهم، رفعوا أصواتهم بذرائع المؤيدين، من قبيل توسد السلاح، وتسيد الإسلاميين للمشهد، وطائفية مفترضة للثائرين، وأضافوا إليها حجة فشل الثورة في تأسيس نظامٍ بديلٍ، وظهور الانفلات، وانتشار الفوضى، وإجرام بعض الثوار و''تشبيحهم''، وأخيراً، ذريعتهم ظهور ''داعش''.

ترى هل ينفع القول لأولئك، وغيرهم، أن الثورة بالأساس ليست نظاماً، ولا نموذجاً جاهزاً، وأن الثورة فعلٌ، وحركةٌ مستمرةٌ، وأنها سلسلة أحداث متفاعلة، وأنها استيلاد أنساق جديدة، وقطعٌ مع هياكل، وبنى. وتأسيس مفاهيم، وأنها قبل أي شيءٍ انشغالٌ بالواقع، لمحاولة فهمه، وتغييره؟

وهل يجدي أيضاً، القول: أن مسيو ومدام ''دوفارج'' المختلقان، و''روبسبير'' الواقعي في الثورة الفرنسية، و''فلاديمير لينين''، و''ليو تروتسكي'' مؤسس الجيش الأحمر، في الثورة البلشفية، قد مارسوا ''داعشية'' القتل، والتهجير، والسجن ضد الآلاف من خصومهم،

ومناوئيهم؟ وهل ينفع التذكير أن تلك الثورتين استمرتا لسنين طويلة، وأدتا إلى تدمير، وتخريب البلدين، قبل أن ينهضا من جديدٍ، وقبل أن يتضح أن تلك الثورات قد غيرت وجه العالم؟

ماذا نفعل إن كنا قد استنجدنا مراراً بقوى العالم الحر، فأعرض الجميع، واستجاب الجهاديون؟ لكنهم أرادوا تحويل ثورتنا إلى حربٍ مقدسةٍ لإقامة الخلافة؟ هل كان ذلك ذنبنا؟ وهل حقاً نحن الملومون؟

بيد أن قدرنا ربما، أن يكون انعتاقنا وتحررنا، محكوماً بممرين إجباريين للموت، ''النظامي'' و''الداعشي''، وعليه، قد يكون الموت مآلنا الأخير، فهل نتوقف ونرضخ للنظام، أو نسير في ركب ''داعش'' ؟

والآن يقرر قادة العالم أن يجهزونا لمحاربة ''داعش''، التي تسببوا في إيجادها، لا لأنها تقتلنا، بل لأنها باتت تهددهم.. هل توجد ''داعشية'' أكثر من هذا؟ الأسبوع الماضي سألني ''عبيدة''، الذي خبر مقاتلي ''الدولة'' في جرود القلمون، إن خُيرت بين النظام و''داعش'' فمن سأختار؟، أختار ''داعش''، أجبت..

خيرني أيضاً، بين ''داعش'' و''زهران علوش''، مجدداً، اخترت، ''داعش''. هذا اختيار العدم..

بيد أنني أفضل قطع رأسي، تطهيراً للذنوب، أو تطهيراً للأرض مني، على العيش في ظل النظام، أو تحت حكم من يضاهيه سلطوياً.

ولا شك أن كل ما يعرضه الواقع الآن لا يتجاوز الخيارات العدمية. بعد هذا، هل من وجاهةٍ للسؤال عن الثورة، أو عن فشلها، أو انتصارها؟

قلمي مسمارٌ صدئٌ

وحبري هو دمي الممزوج بسخام حلمي المحترق

ولوحي هو أشلاء أصدقائي التي مزقتها صواريخ الطائرات

وفضائي هو صدور أطفالٍ امتلأت بالسارين والكلور..

ولا شيء يبدو بعد، أنه يهم أكثر..

معذرة.. كل عام وأنتم بخير
كيف نجمع بين البسمة والإحساس بالألم

نبيل شبيب

في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب في يوم النحر فقال [يا أيُّها الناسُ أيُّ يومٍ هذا؟] قالوا: يومٌ حَرام، قال [فأيُّ بلدٍ هذا؟] قالوا: بلدٌ حَرام، قال: [فأيُّ شهرٍ هذا؟] قالوا: شهرٌ حرام، قال: [فإن دِماءَكُم وأموالَكُم وأعراضَكم عليكم حرامٌ، كحرمةِ يومِكُم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا] وفي رواية: [إلى يومِ تَلْقَوْنَ رَبّكم] فأعادها مراراً، ثمّ رفع رأسه فقال: [اللهمّ هل بلغت، اللهمّ هل بَلّغْتُ. فليبلّغ الشاهِدُ الغائب. لا تَرجِعوا بَعْدي كُفّاراً، يضربُ بعضُكم رقابَ بعض] قال ابنُ عباس: فوَ الذي نفسي بيَدِهِ إنّها لَوَصيّتُه إلى أمته.

ما حفظ المستبدون وأشباههم من المجرمين الوصية، ولهذا أصبحنا نعايش المآسي، فنستشعر في أعيادنا الحرج الشديد، وقد يعبر عن نفسه في محاولات الجمع بين الحرص على معاني العيد والمباركة بأيامه، وبين مراعاة دمعةٍ محبوسةٍ أو متفجرةٍ بالألم، فلا نكاد نلفظ المباركة بالعيد دون أن نضيف إليها كلمات ,,التعزية'' أو على الأقل ما يجدد التذكير بضرورة العمل والصمود والإباء.

كلا.. لا داعي للحرج.

إن الاحتفال بالأعياد واجبٌ وضرورةٌ وحاجةٌ إنسانية، وإن التأثر بالمآسي ونصرة الضحايا والعمل الدائب لخدمة القضايا العادلة على مختلف المستويات وعلى تعدد الأمكنة والأزمنة والأحوال، واجبٌ وضرورة وحاجة إنسانية.

وإن الجمع بين هذا وذاك واجبٌ وضرورة.. مثلما نجمع بين: تذكير بعضنا بعضاً بأيامٍ غابرةٍ حافلةٍ بالانتصارات من بدر إلى فتح القسطنطينية وبالإنجازات الكبرى من دار الترجمة في بغداد إلى اكتشاف الدورة الدموية..

وتذكير بعضنا بعضاً بأيامٍ أخرى كأيام مؤتة وغزو هولاكو لبغداد والنكبة الأولى بفلسطين واحتلال العراق حديثاً، وما صنعت أيدينا من مآسي الاقتتال بين عرب وعرب ومسلمين ومسلمين في أكثر من صفحةٍ من صفحاتِ التاريخ السوداء القديمة والحديثة.

يجب أن نرى الإنجازات على طريق التحرر والتغيير.. ونستشرف النصر القادم، وأن نسمع في الوقت نفسه استغاثات المستغيثين، من جائعين ومشردين ومنكوبين.. وكيف أصبحنا نكتب بأيدينا عبر تقصيرنا في أداء الواجب تجاه أنفسنا وتجاههم صفحات سوداء أخرى من تاريخنا.

لا تناقض بين أن نذكر بعضنا بما يصنع الأمل في أعمق أعماقنا وبين أن نذكر بعضنا بما يجب أن نتعلم منه الدروس لنرتفع بمستوى أنفسنا ومستوى عملنا في واقع عالمنا وعصرنا.

كذلك.. لا تناقض بين أفراح الأعياد ودموع المآسي، إنما المشكلة تكمن في ألا نرى واقعنا بكل جوانبه الإيجابية والسلبية، أو لا نتحرك وفق ما يقتضيه ذلك للنهوض بأنفسنا وبلادنا وشعوبنا وبالبشرية إلى واقعٍ أفضل.

يجب أن نرتفع نحن بأنفسنا وأحاسيسنا وطريقة تفكيرنا، وأن نطوّر أساليبنا ووسائلنا، وأن ننمي إمكاناتنا وقدراتنا، من أجل أن نكون مؤهلين للتعامل مع ما ينشر البسمة ويصنع العزيمة، وما يكسر القيد ويبني المصنع، وما يزيد الانتصارات ويحدّ من المآسي.

لن يكون جيل أطفالنا قادراً من بعد رحيلنا على صنع ما عجزنا عن صنعه، إذا تجاهلنا في العيد ما يعيشه من أحزان وآلام، أو إذا بالغنا في تجنب الفرحة والبسمة.. شريطة أن نستعيد التوازن الذي يجعلنا قادرين على أن نعطي الأعياد حقها دون تقصير، والمآسي حقها دون تقصير، لتتحول فرحة الأعياد وتتحول دموع المآسي على السواء، إلى منابع طاقةٍ إضافيةٍ تصنع التغيير على الطريق الصحيح، وتدعم تطوير أنفسنا حتى نصل بأنفسنا وبمجتمعاتنا وشعوبنا ودولنا إلى أهدافنا العزيزة الكريمة، إلى حالةٍ متوازنة، لا يبقى فيها أثر للحرج، ولا يشعر أحدنا وكأنه ينبغي أن يعتذر، عندما يقول بعضنا لبعضنا: كل عام وأنتم بخير.

في طريق العودة إلى قدسيا....
تفاصيل موجعة .... ليوم الاقتحام

ل . ن

للبكاء ألوانٌ ونوايا، فلا تنهمر الدموع هكذا، ولا تشبه الشهقات، سرعة الزمن، وفي النحيب، حزنٌ قديم، امتلأت به الصدور حتى فاضت، أما من نبكيهم، يقصمون قلوبنا قبل ظهورنا.

هكذا خرجنا ولم نعد، اقتحام قدسيا في ذلك اليوم، أشبه بحلمٍ قديم، تتزاحم الاتصالات والأسئلة، وتتعدد الاحتمالات والأفكار، إلى أن يتأكد الخبر، بعد ساعات، يصبح الخبر من الزمن الماضي، ولا حاضر إلا ذهول ما بعده.

في ساعات الليل، لا يشبه البكاء، بكاءنا في كل ما مضى، وأسأل عن حال الأحياء والأموات، ويتساوى فجأةً كل شيء، حتى يأتي الصباح، لتنهمر الأخبار من جديد، ويضحكني أن أرى نفسي خبراً على التلفزيون، حزني ودهشتي، وخوف من حولي، كلنا (خبر عاجل)، سرعان ما يختفي.

بعد عامين على إخراجنا من بيتنا وحرقه، تفقد الأشياء معناها، ظاهرياً، فلا نوافذنا على الحارة، تشبهنا، ولا جرائدي مكدسة يعلوها الغبار، لم يعد لأمي مكانٌ في المطبخ، ولا الجارات مجتمعات حول فنجان قهوة، وفي المساء، لن يعود أبي، من صلاة العشاء، يطرق الباب كما لو أنه دربكة، ويربكني التفكير بالصور والشهادات والملابس، قصاصات الورق وهدايا الأحبة، قصائد كتبها يوماً لي، وغيرها كتبتها، علّه يقرأها، في زمنٍ يجمعنا.

ولا ينتهي الألم، فقدسيا لم تعد كما كانت قبل ذلك اليوم، تغيرت الوجوه، واختفى بعضها، غادرنا من نحب، ولم نستيقظ بعدها، ولم ينتهي مسير الألم، فما عشناه من أحلام بـ حريةٍ وحياةٍ أفضل، غادرنا أيضاً، باتت أحلامنا أكثر غباءً وأقل أهميةً، يكفي أن يمر اليوم، دون أن نُقتل أو نُعتقل، يكفي ألا تُحاصر قدسيا من جديد، يكفي أن يقول لي (اشتقتلك)، ويكفي أن أراه.

قبل أن يدنسوها، كنت أعشق الطريق إلى المدرسة، وأضواء جامع الصحابة، الهمس بين شابٍ وفتاةٍ، والمطر بانتظار السرفيس، الناس يسرعون إلى صلاة التراويح، جدتي تفتخر بما حفظت من زغاريد، أهل العريس يتفحصونني، وصبيان الحارة، يغريهم شابٌ يسند ظهره إلى زاويةٍ ما، وينتظر.

6/10/2012 يومٌ عاجز، وهل عجزٌ أكثر من وقوفك قريباً من بيتك، وحياةٌ بأكملها تحترق، وأعود بعد أيامٍ مع العائدين، يذهلني ما أراه، قدسيا يا وجعي، الحجر والإنسان فيها، مُسود، وأدخل بيتي، أو ما كان عليه يوماً، لم يعد هناك شيء، النار لم تأكل بيتنا فحسب، لقد عششت في أنفي، ولا زالت حيةً في ذاكرتي.

بعد عامين، وسيل الحزن عارم، عذراً يا شهداء قدسيا.... يا أهلها ... أيها المعتقلون، اعذروا خوفي وغبائي، حياتي وأنتم أموات، سهوتي وأنتم شلالٌ إلى السماء، ذنوبي خلف طُهركم، دعوني أعود، وأخاف أن أعود فلا أراكم، لا تحرقوا طريق العودة.

على الحاجز..

أصوات القصف تشتد وصوت الرصاص لا يكاد يهدأ، كان يوماً لا ينسى، اضطررنا إلى اللجوء لأحد منازل أقاربنا، بدا البيتُ هشاً فقد كان مبنياً من الطين واللبن، ما زاد من رهبتي، بينما كان العجوز الستيني مطمئناً، حد الاستفزاز، ولعله شعر بما يدور بداخلي فقال بصوتٍ كالهمس: " يا ابني كف الرحمن بتحمينا"، انتابني هدوءٌ وسكينة ولفرط التعب غرقت في نومٍ عميقٍ.

فجر الجمعة أيقظني عمي وقال: "لم يبق في قدسيا والهامة إلا بعض الشباب، حاول أن تلحق بهم برفقة أخيك عسى أن ينقذوك من يد النظام"، فقد كنتُ وأخي متخلفين عن خدمة العلم، ما همتني هذه الكلمات، بل إني لم أصدق أن الثوار المرابطين سوف ينسحبون من البلدة، حتى رأيت بأم عيني أن ثلةً قليلةً تتجهز للانسحاب... لم أعرف أحداً منهم، ما اضطرني للخروج مع بقية المدنيين الذين خرجوا باتجاه الحاجز الوحيد المقام عند مفرق الضاحية، وهو السبيل الوحيد للخروج فجميع الطرق مغلقة.

خرجتُ وأخي مشياً على الأقدام، باتجاه الحاجز، آثار الدمار مروعة وسحب الدخان تتصاعد جراء حرق المنازل والمحلات، بينما يحاول عناصر الجيش على الحاجز ترويع الناس بالدخول بينهم وإشهار السلاح وإطلاق بعض الأعيرة النارية في السماء، عداك عن دوي الانفجارات داخل البلدة نتيجة تفجير الألغام حسبما ردد بعض الناس من حولي... وثمة شابٌ يقف إلى جواري أُصابه القناص بساقه ليرعبنا... وتتوالى الأفكار بذهني عن مصيرنا ومصير هؤلاء المحتجزين بعد أن أغلق الحاجز عند الساعة ال7 صباحاً... ويقترب أخي من الحاجز ويشتبه به أحد العناصر ويقتاده إلى باصٍ احتجزوا بداخله المعتقلين، ويتراكم الإحساس بالخوف عندي... ويسمح لنا بصعود أحد الباصات لخروجنا، وقبيل المغادرة يقترب أحد الضباط بينما عناصره تفتش الباص، ويمسك هو بالهويات، ودقات قلبي ترتفع معها كلما اقترب من بطاقتي الشخصية وينطلق لساني باللجوء إلى الله داعياً، وبحمد الله نجوت.. يلتفت ويصرخ: أنتم من اختار أن يكون بيئةً حاضنةً للإرهاب، لو طلبتم منا المساعدة لما حصل معكم ما حصل وهذا هو عقابكم.

ودخل الباص عنصرٌ يسأل عن أحد الأشخاص ممن كانوا بيننا، وينزله خلف أحد السواتر ولم نعرف مصيره، أو حتى سبب اعتقاله، وعلى الوجوه بدت علامات الذعر والتعجب لما حصل، دون ان ينبس أحدٌ بكلمةٍ واحدةٍ.

في السابعة مساءً أفرج عنا بحمد الله وفضله وعبرنا من الحاجز، كأنه العبور نحو حياةٍ جديدةٍ، وذهبنا إلى بيت أحد أقاربنا وقضينا وقتنا عنده لحين عودتنا إلى البلدة ولا تزال عبارةُ العجوز " كف الرحمن تحمينا" آثارها في نفسي إلى الآن.

صباح الثورة | العدد 80 | السبت 4 تشرين الأول | 2014

سياحة الجهاد

الخلل في المفاهيم وانتظار التغيير من السماء دون القيام بأي خطوة جدية في هذا الباب مشكلة يعانيها المجتمع السوري، فبينما يأتي المقاتلون ــ المجاهدون ــ من إيران وغيرها باسم العقيدة وهم أصحاب فكرة المهدي المنتظر، نتطلع نحن لظهور معجزة إلهية تقلب الأحوال، رغم أن العبارة المتداولة على ألسنة الناس قوله تعالى: ((**إن الله لا يغير ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم**))، والرغبة في الابتعاد عن الأحداث والتململ أصبحت سمة الكثيرين ممن يحاولون البقاء على الحياد، سواء على مستوى البلاد أو على المستوى الداخلي في مدينة كقدسيا، والكل يتحدث عن الاستغلال وركوب موجة الثورة، أو استغلالها، وآخرون يحاولون تصيد الأخطاء للثوار، جميع هؤلاء يلعب خلف الكواليس والمسوغات كثيرة حين تطالبهم بلعب دورهم إن اعتبرناهم من النخبة في مجتمع المدينة، حالة الغياب هذه أوصلتنا للانصياع إما لتجاوزات البعض، أو لشروط النظام والرضوخ له، وما غياب مشاهد الثورة عن بعض المناطق كمدينتنا إلا دليلاً، هو ذاته الخلل الذي سمى الجهاد في فلسطين مقاومة، سمى الحالة التي نعيشها بالفوضى، والمعروف أن المقاومة تختلف عن الجهاد فالأولى هي ردة فعل على عملٍ ما، بينما الثانية هي فرضٌ من الله تعالى هجره المسلمون حين ركنوا للدعة واختلت قيمهم لما ابتعدوا عن الدين، واتبعوا تفسيراتٍ للشرع والجهاد ما أنزل الله بها من سلطان، والمبرر ((ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة))، متجاهلين أن سبب نزول هذه الآية بحد ذاته هو حجةٌ عليهم فقد نزلت لما شعر المسلمون بكثرتهم ورغبوا أن يركنوا للمال وترك الغزو، فالتهلكة هي في ترك الجهاد كما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا أذلهم الله، وما ترك قوم المر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا عمهم الله بعقابه)، ومن المعلوم أن أبواب الجهاد متنوعة، فهي تتنوع بين الجهاد بالنفس وهو أشرفها والمال واللسان قال رسول الله : (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم) الملاحظ أنه تعالى جمع بين هذه الأصناف، ولو قرأنا الحديث من جديد مع نص الآية الكريمة لوجدنا أننا أمام فريضةٍ كانت قد ضيعت ولما قام المجاهدون بحمل لوائها هرب منها كثر، وفي مدينة كمدينتنا أبواب الجهاد مشرعة، وأحواله، ولعلنا اليوم تحت مسمى ((وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)) وهي القوة العسكرية والبدنية، ومحاربة الفساد وأخذ زمام المبادرة في رفع الظلم فيما بيننا وعن أنفسنا حين نرتكب الأخطاء، وترك الخوف من الموت هو الأولى، إذ لا يمكن أن نبرره بأن الله تعالى جاء بالإسلام وفرض العبادات لصالح الناس وهي رغم كونها حقيقة، لكنها ليست بهذه الدقة إذا ما تحدثنا عن عبادة وفرض كالجهاد وهو ذروة سنام الإسلام، مع ما يحمله من تلف لجسد الإنسان، والإنسان الذي ارتضى دخول الإيمان بالله جل جلاله قد دخل في عقدٍ إيماني مع الله تبارك وتعالى، ومادام دخل العقد الإيماني فإنه يتلقى عن الله منهجه في أفعل ولا تفعل، وهذا المنهج عليه أن يطبقه دون أن يتساءل عن الحكمة في كل شيء ذلك أن الواجب النظر للأمر قبل أن تنظر للأمر، وأن الإيمان هو إيمان بالغيب، فحكمة أي تكليف إيماني هي أنه صادر من الله سبحانه وتعالى، وما دام صادراً من الله فهو لم يصدر من مساوٍ لك كي تناقشه ذلك أن كل ما نتلقاه من الله من قرآن نستقبله أنه كلام الله ولا نستقبله بأي صيغةٍ أخرى وهو ما يجب أن يكون عليه سلوك حياتنا، فالصلاة فريضة لا نصليها كنوع من الرياضة، والصوم لم يفرض لنستشعر بالفقير، وإلا لما وجب على الفقير أن يصوم لأنه يعرف معنى الجوع، والعبادة غير معقولة المعنى وواجبنا الامتثال قال تعالى: ((لا يسأل عما يفعل وهم يسألون))، والدليل أن بعض حروف القرآن لها أجرٌ حتى لو لم تفهم معناها مثل (حم). إن من هم في الداخل السوري عليهم فرضية الجهاد واجبة من كل أبوابها وليس من أحده دون الآخر وتتنوع بحسب الحال التي نحياها في مدننا، والمهمة عظيمة تبدأ بالنفس وإعدادها وإقبالها على هذه الفريضة ويكفينا قوله تعالى: ((إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم)). فهو الصفقة الرابحة وما فلسطين التي ترك البعض من أهلها الجهاد في وجه عدوهم منا ببعيد، فكيف بنا وعدونا يقاتلنا بعقيدة يدعي أنه يدافع عن الأضرحة وباسم الإسلام بينما نتخلى نحن عن دورنا وواجبنا. والحديث في هذه السطور لا يكفي لكن ينبغي أن نقرأ وندرك مسرعين سنة نبينا صلى الله عليه وسلم حين سأل أي الأعمال أفضل؟ قال: ((إيمان بالله ورسوله))، قيل: ثم ماذا؟ قال: ((الجهاد في سبيل الله))، قيل: ثم ماذا؟ قال: ((حج مبرور)). وفي موضعٍ آخر: ((إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله)). الربط بين قدسيا وبين حديثنا عن الجهاد لما لها من حالة خاصة تعيشها في ظل الحرب، ولتعدد الحالات التي عاشتها، وكثرة الأقاويل فيها عمن أساء، وهو ما لا ينبغي الوقوف عنده للتراجع عن جهادنا والقول بأنه سبب ترك دورنا وواجبنا أمام الله تعالى أولاً وآخراً.

الغريب

كان في الأصل غريباً، وكل ما فيه غريبٌ، لكن بطريقةٍ متناسبةٍ معه، شكله.. بساطته.. تفكيره.. تلقائيته... ونهايته أيضاً.

عندما تعرفنا عليه كنا في الصف الثامن، حضر إلى معهد تحفيظ القرآن، وصار ''أخاً'' لنا في ''الحَلَقَة''، وذهب معنا إلى بحيرة "زرزر"، ومن ثم اختفى..

عندما عاد كنا ننتظر نتائج امتحانات البكالوريا، ونهيئ أنفسنا لبداياتٍ جديدةٍ، أما هو فقد كان لا يزال ذلك الطفل، لم يتغير فيه شيءٌ على الإطلاق، وكأن الزمن قد نسيه وراءه، إلا أنه ازداد طولاً فقط..

عمل في صنع "العوامة"، وصار يرافق ''الأستاذ'' في جميع زياراته، ومشاويره، وأصبح يلازمه في حضور ''دروس العلم'' في مسجد "أبي النور" بدمشق، هو أيضاً بدأ يختار طريقه.

في مجيئه الأول لم تتح لي فرصة التعرف إليه، لكنه حينما عاد، قررت أن أعرفه، وفي أول حديثٍ معه، سألته: لماذا انقطعت عن المجيء إلى المسجد، قبل عدة سنوات ؟

فرد ببراءةٍ، وبساطةٍ: والله وقتها اشتريت "بسكليت"، وصرت العب عليها بالحارة، ونسيت الدرس..!

أحببته، وصرنا أصدقاء.. وصار شاغله ارتياد المساجد، وحضور ''دروس العلم''، وسماع ''الشيوخ''، ولم يعد يخلو أي حديثٍ له من الاستشهاد ''بحكمتهم''، وترداد أقوالهم، أما أنا المصاب بالسأم، والقرف منهم، والمحبط من نفاقهم، وجهلهم، فكنت أتعمد تسفيه تلك ''الدروس'' أمامه، والتكلم بالسوء على ذينك ''المشايخ''، كنت أسعى لتوعيته، والتأثير في تفكيره، وأحياناً كنت أرغب بإغاظته فقط، حتى لا يسترسل بحديثه أمامي..

لكن محاولاتي كانت تبوء بالفشل، فقد ظل مقتنعاً ''بعلمهم''، وكان من طبيعته أنه حينما يتعلق بحديثٍ، أو بقصةٍ فإنه يظل يرددها، ويكررها حتى يحفظها تفصيلاً كل من يلتقي به، أو يجلس إليه، ولا يترك ذكرها حتى تقع بين يديه قصة أخرى، فينسى الأولى، ويدير أسطوانة الثانية، حتى تأتي ثالثةٌ، وهكذا..

في إحدى المرات حدثت معه قصة، رواها لي آلاف المرات، بدت طفوليةً جداً، ومضحكةً كجميع قصصه، وككل تفاصيل حياته، وكان عندما يزورني، ونتحدث، ثم يجد فيَّ تبرماً من حديث ''العلم''، يحاول تغيير الحديث لإبهاجي، فيسألني: هل رويت لك ما جرى بين والداي، وجارتنا "أم رنو" ؟ وكان يسأل بجدية، فقد كان ينسى دائماً أنه حكاها لي..

وكنت أجيب في كل مرةٍ: لا، لم تروِ لي..

يعذبني جداً سماع القصص المكررة، لكن العذاب الذي كنت أحسه من سماع قصصه التي صرت أحفظها، لدرجة أني كنت ألقنه التفاصيل التي ينساها، كان فيه شيءٌ من الألم العذب، يروي حكايته، فأسرح بخيالي في عوالم بعيدةٍ، وأستمتع بالألم، وأنا أفكر من أين تأتيني تلك اللذة، ما سبب هذه المازوشية؟.

في ذلك الصيف ذهبنا برفقة ''الشيخ''، في رحلةٍ إلى البحر، وهناك كنا في الظهيرة نستلقي تحت الأشجار، كنت أعجز عن النوم، إلى أن اهتديت إلى المنوم، فصرت أسأل رفاق الأرق، هل تعرفون قصة "أم رنو" ؟ فيجيبون: لا.. فأنادي لصاحبي، وأقول بمكرٍ: اروي لهم قصة "أم رنو"..

يبدأ صديقي حكايته، فيبدأ خدرٌ ثقيلٌ بالتسلل إلي، إلى أن أصاب بما ''الشيخ'' قرر، أو يردد جملةً، أو مقطعاً من خطبة ''الشيخ''.

لطالما وجد في كلام ''الشيخ''، رأس الحكمة، وغاية العلم، وكان يتمنى أن يصبح شيخاً، خطيباً، لذلك قرر الحصول على الشهادة الإعدادية، وطلب مساعدتي، فابتدأت معه دروس اللغة الإنكليزية، لكن همته فترت بسرعةٍ، ثم توقف..

الامتحانات، أما حديثه الأثير، فقد ظل: ''الشيخ'' قال، ''الشيخ'' فعل،

زارني في أحد الأيام، وعندما جلس، نظر إلي لثوانٍ، وكأنه يطلب إذناً، لأنه سيقول شيئاً مهماً، ثم قال:

- نحن دولةٌ علمانيةٌ.. ولكنها علمانيةٌ مؤمنةٌ.. قال ذلك بإعجاب، وفخرٍ، وبصوت عالٍ، مقلداً صوت ''الشيخ'' الألمعي الذي قال ذلك الهراء، لا أدري ما الذي توقعه مني، لكنه بالتأكيد لم يتوقع أن أقول: مين هالحمار اللي قلك هيك !؟ سكت..

كان أصغر إخوته، له أختُ وحيدةٌ كبرى، وثلاثة أشقاء، شقيقه الأكبر، وشقيقه الثاني معتلان منذ الولادة، والأكبر فضلاً عن مرضه العقلي، كان مشلولاً أيضاً، أما أخوه الذي يكبره مباشرةً، فكان مصاباً بمرض السكري، أبوه كان كبيراً في السن، وأمه مدرسةٌ متقاعدةٌ، أما هو فكان دائم الإصابة بأمراضٍ صعبةٍ، وغريبةٍ، في أخر مرةٍ، مثلاً، أصيب بمرض "السل"، فانتفخت غدد رقبته اللمفاوية، وصارت له رقبتان، عندما رأيته، ضحكت كثيراً، ولم أتمالك منع نفسي.. أخبرني أنه بحاجةٍ إلى عمليةٍ جراحيةٍ، كنت أحب مساعدته، وكنت دائماً أقول له: أطلب ما تريد، لا تخجل مني، في ذلك اليوم فعل..

أخر مرةٍ رأيته فيها كان قبل اقتحام الجيش بثلاثة شهورٍ، أتى لزيارتي في إحدى الأمسيات، وأخبرني أنه يفكر بالزواج، وأن والدته تريده ''عريساً'' كأخيه، ثم قال لي: أن موعد تجديد جواز سفره - وثيقة إثبات شخصيته الوحيد - قد حان، وأنه لا يملك النقود، فأعطيته، وأخبرته أنني سأتدبر له الباقي في اليوم التالي، لكنه لم يعد..

عندما أخبرني أخي أنه رآه قرب منزله ممدداً في الشارع، إلى جوار أخيه ''العريس''، بثيابهما المشققة، وبآثار تعذيبٍ وحشيٍ واضحٍ عليهما، مصابين برصاص في الرأس.. لم أستطع البكاء. بعد المعركة، كنت مستنزفاً، ومحطماً من الداخل.. كان شعور الضآلة، والعجز يمزق أعماقي..

عندما كان حياً، كنت أداعبه بسؤالٍ يقطع حديثه: يامن زعلان مني ؟ فيجيبني: لا.. فأباغته بسؤالٍ آخرٍ: بتحبني ؟.. يخجل، ويرتبك، ثم يدار ذلك بابتسامته الرقيقة.. ويجيب: أحب ثلاثة أشخاص، باسل، وكمال، وأنت..

كان يكفيني أن أكون الثالث، المهم أن أكون موجوداً بين من يحبهم.. لطالما اعتبرته أخي الصغير، وعاملته برفقٍ أبويٍ، واعتبرت نفسي مسؤولاً عنه، وعندما كان بحاجتي لأخر مرةٍ، خذلته، وعجزت عن حمايته..

فهل أبكي الآن عليه، أم على نفسي ؟

أخبرني أخي أيضاً، أنه في تلك الظهيرة الحارقة رأى أخاه الثالث، يجلس عند رأس أخويه الممددان على الإسفلت، ويقرب من شفاههما المدماة، زجاجة ماءٍ.. ما نفع العقل، إن كان ''مجنونٌ'' فيه إحساسٌ أكثر..

في اليوم التالي لعودتي إلى المدينة، ذهبت إلى بيته، كان البيت خالياً، هناك أخبرني أحد الجيران، أن القَتَلَة في ذلك اليوم، بعد انسحاب المدافعين عن المدينة، صعدوا إلى المنزل، وأنزلوا الأب، وولديه، وعذبوهم، ثم أعدموهم ميدانياً في الشارع، فيما تركوا الأم، والبنت، والولدان المريضان..

كم كانوا رحماء، وأصحاب ضمائر..! لم يعرف المجرمون كم كان طيباً، وهشاً، وسريع الكسر.. لا حاجة للرصاص، تقتله كلمةٌ، أو صفعةٌ..

سألت الجار أين قبرهم ؟ الجيش أخذ الجثث معه..

وهكذا انتهت القصة..

أعطاني الجار رقم هاتف أخته، اتصلت بها، وعرفتها بنفسي، ثم عرضت عليها ''خيبتي''.. بعد مدةٍ، علمت أن الأم، سافرت مع ابنتها، وولدها الثاني، إلى "غزة"، بعد أن أودعت ولدها الأكبر العاجز، لدى إحدى المؤسسات الخيرية.. رحلوا إلى قتلٍ آخرٍ.. اليوم، وبعد سنتين على استشهاده، لا زلت أحس أن حزني عليه يزداد بدل أن يخبو..أمرٌ غريبٌ فعلاً..

أحببت "العوامة" منذ أن كنت صغيراً، لكن اليوم صرت أشعر أني أحبها أكثر..